عـمـارة الأرض
بين الإيمان والعمران

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

عبد الرحمن السالمي

يقيم القرآن الكريم في كثيرٍ من آياته ارتباطاً بين ثلاث مقولاتٍ هي الإيمان، والاستخلاف، والعُمران. وهذا نهجٌ واضحُ القسَـمات يعده كتابُ اللّه النهج السـليم لإحلال الإنسـان في الأرض، ولاسـتمراره وازدهـاره فيها. فالإيمان باللّه ﷻ هو الطريق الحقُّ في سبيل إعمار الأرض. وتلـك حقيقةٌ ظهـرت في الوحـي الإلهي بأشـكالٍ مختلفة؛ فالقرآن الكريم يؤكِّـدُ أنّ الناس كانوا أمـةً واحدة، وهذا يعنـي أنّ الأصل فـي إنسـانية الإنسـان هو الإيمـان. أما الاختلاف، والخروج على نهج السـداد والتسديد فقد حصل بعد ذلك. وهذا الخروج كان السـبب في إرسـال الرسـل، ونشر الرسالات؛ لإعادة البشـر إلى جادّة الصواب. ولذلك فلسـفةٌ وضّحها القـرآنُ ـ كما سـبق القـول ـ عندما ربط الوجود الإنسـانيَّ الأول بالمهمة التي أَوكلَها اللّه سـبحانه لبني البشر باستخلافهم على الأرض: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونـس: 14]. هل كان الإيمان شرطاً من شروط الاستخلاف؟ هذا الذي يدلُّ عليه قولُهُ تعالـى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ ﴾ [الأعـراف: 172]. أما وقد

حصل الأمران؛ أي الإيمان والاستخلاف؛ فإنّ الإعمارَ المَهديَّ هذا هو الذي يكفل وصول الوجود الإنساني إلى غاياته أو غايته الكبرى في السواد وحُسْن الرشاد والاسترشاد. فالعمران في المنهج القرآني، والمعْني العمران الباقي، هو الناجم عن الأمرين السالفَي الذكر.

وقد يقول قائلٌ: لكنّ الإعمار المشاهَد أو الحضارات التاريخية والحاضرة في مجملها (وهي جميعاً عُمرانٌ من نوعٍ ما) لا يمكن وضْعُها في سياق المقولات الثلاث، أو أنّ مَعْلَماً واحداً أو اثنين يكونان غير حاضرَين بالقوة المنتظرة. وهذا التخالُفُ ـ إذا صحَّ التعبير ـ ليس جديداً. فقد ذكر القرآنُ أنّ البشر ـ وبعد المرحلة الأُولى ـ سرعان ما خرجوا أو خرج بعضُهم على نهج السداد، فأرسل الله سبحانه الأنبياء والرسل لإعادتهم إلى نهج السداد الأول. وهكذا وعلى الرغم من أنّ الاستخلاف ارتبط بالعهد الأول مع الله، فإنه صار أمراً وجودياً ظاهراً في فطرة البشر وعملهم. وهم يستطيعون بالفعل وبفطرة الخَلْق إنشاءَ التجمعات البشرية. فالإنسانُ مفطورٌ على الأُنس أو كما يعبِّر الفلاسفة أنّ إنسانيته لا تُكتمل إلّا بالاجتماع مع نظائره، وتأسيس الأُسَر والمجموعات. بل إنّ الإنسانَ الفرد لا يستطيعُ ـ بحسبهم ـ قضاء كلِّ حاجاته بمفرده، فيحتاج الأمر إلى تقسيمٍ بدائيٍ للعمل لا يلبث أن يتطور ويتعقد، من الاشتراك أو التشارك والتبادُل في قضاء الحاجات الأساسية في المأكل والمشرب والمسكن واللباس. ثم يتجاوز الأمر ذلك إلى الحاجات والتحسينات. ومع تعقُّد الاحتياجات، وتطور التجمعات الإنسانية والدخول في الاستقرار، تتدخل الأهواء والنوازع والغرائز، فيعي عقلاءُ الناس أنه لا بُدَّ من سُنّةٍ ومَعْدَلةٍ؛ لكي لا تُدمِّر نزعاتُ الطمع والشر ومزايداتُهما المجتمعاتِ الناشئة. وهنا يتفارق النهجان: نهج مكافحة الأهواء بالقوة المجرَّدة، ونهجُ الهداية الدينية الأُولى أو المقياسية التي يُسلِّم لها الجميعُ؛ لأنها تُلزمُ بالحق والتساوي بين الحقوق والواجبات؛ أي أنها تُلزِمُ بما هو خيرٌ للجميع. وهذا معنى إرسال الرسل للتوعية من طريق الدعوة إلى النهج الأرشد. فمن الممكن أن تقوم تجمعاتٌ على غير دينٍ واستقامة؛ لكنّ التجمعات الباقية والمزدهرة هي تلك التي

تقومُ على الرضا والتراضي من خلال الهداية الربّانية. فالاستخلافُ حاصلٌ على العهد الأول الذي قد ينساه بعض الناس؛ لكنّ الله ﷻ ضمن للبشر ـ من خلال الرسالات المتوالية ـ أن يستقيم وجودُهم، وأن ترتفع تجمعاتهم إلى درجة **المدينة** أو الحضارة، كما يقول المؤرخون والمفكرون. فقد أطلق رسول الله ـ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه ـ على يثرب بعد هجرته إليها اسم **المدينة**، والمدينة تجمعٌ حضَريٌّ كبير، يلبي احتياجات الناس مهما بلغ من تعقُّدها. وليس الأمر كذلك في التجمعات التي تسودُها وجوهُ التغالُب والصراع: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112].

إنّ الاستخلاف حاصلٌ إذاً؛ بَيْدَ أن الاستخلاف الحقيق ـ الذي يقودَ إلى العُمران المكتمل ـ هو المستند إلى دينٍ جامعٍ أو دعوة خيرٍ سامية. لكن حتى في هذه الحالة؛ فإنّ البشر يخطئون، والأقوياء يطغون. ولذا يطلب الله ﷻ من القائمين على هذا الاجتماع الاستغفار والتوبة. وهذا يعني الرجوع إلى نهج الصواب المستند إلى عهد الإيمان الأول. هذا الأمر تؤكِّدُهُ الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]. وفي الآية ملحظٌ شديد الأهمية، وهو ربْط الإصلاح بالصلاح. والصلاح قد يعني التقوى، وقد يعني في هذا السياق الكفاءة والتأهُّل لعمليات الإعمار الكوني والإنساني، والفردي أيضاً. أما الملحظ الآخر فيعبّر عنه القرآن بالاستبدال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38]. وبذلك فإنّ العمران المكتمل أيضاً قد يصبح أنواعاً: العمران المستند إلى الإيمان والمراجعة الدائمة وتلمُّس الحق والخير والصواب؛ والعمران الذي يزدهر ظاهراً ازدهاراً هائلاً؛ لكنه يظلُّ عُرضةً للانتكاس؛ لعدم استناده إلى الإيمان والصلاح والإصلاح. والعمران الذي يقع بين بين بسبب التردد بين النهجين أو بين نهج الاستخلاف الصالح، والآخَر المغتر بالنجاح السريع، وقدرات السيطرة والسطوة، على طريقة: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34].

يعــرض القرآن إذاً مشــاهد كبــرى لنجاح نهــج الترابط بيــن الإيمان والاســتخلاف والعمران، كمــا يعرض مشــاهدَ هائلةً أيضاً لفقــد عنصر أو عنصرين من هذا المثلث مما يؤدي إلى الفشــل والانهيار في العاجل أو في الآجل.

يقول الله ﷻ عن النهج الذي بترابط فيــه الإيمان والعمران: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 55] هناك إذاً خطواتٌ أو عوامل تتضافر في نهج العمران الســليم: الإيمان الذي يستدعي العمل الصالح فيدفع بالوعي الهادف إلى تأسيس عُمرانٍ مزدهرٍ في الأرض يقوم علــى الإصــلاح والصــلاح. والله ﷻ يقــرّر أنّ هذا الطريق مســلوك ومعروف مــن قبل كثيراً. وكما يترتب عليه اســتقرار العمــران، يترتب عليه أيضاً ظهور الصلاح الديني وانتشار الأمن والأمان ﴿ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [قريــش: 4]. والأمــن هنا يتنــاول الأمن الشــخصي والأمن العام، بمعنى اســتقرار الحضارة واســتمرارها. وفي نهاية الآية هناك تنبيهٌ بارزٌ إلى الأخطار التــي تتهدد العمران المزدهر: شُــحّ النفوس. وقد يقال: لكنّ هذه أمــور فردية؛ إنما نحن نعلم من قراءة تاريــخ الحضارات أنّ هذا «الشُــحّ» بالذات يتحول إلــى منحىً عام فيما ســمّاه تومــاس هوبز: حرب الجميــع علــى الجميع! وهــذه ليســت حالــةً بدائيةً دائمــاً كما قد تُشــعر الأنثروبولوجيــات؛ وإنما أفظع مظاهرها وأكثرها ضــرراً تلك التي تكون في الحضارات الكبرى والمسيطرة؛ إذ تُسيطرُ منازعُ الجشع والتغالب بالداخل، وتتحول إلى سياســات تُحدثُ أضراراً وكوارث على تلك الدولة أو الحضارة، وعلى الحضارات الأُخــرى بالفِتَن الداخلية، وبالحــروب الإقليمية والعالمية. إنها السُنَّةُ التي تحدَّث عنها ﷻ في قوله: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

بَيْدَ أنّ «السُـنَّة» أو الثوابت ـ التي لا تتغير لعواقب الصلاح والفساد ـ لا تعني حصول التبدل في حظـوظ الأفراد والأُمم والحضارات بصيغةٍ واحدةٍ أو شـكلٍ واحد؛ فقد تأتي النُذُرُ الخفيفةُ أو الثقيلـة للاتعاظ والعبرة والردّ إلى الأمر الأول. وإن لم تؤدّ تلك النُذُرُ إلى المراجعة، فقد تحدث انتكاسةٌ كبرى على فترات متطاولة، أو يستبدل المولى الصالحين بالذين ظلموا في النهايـة: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمـد: 38]، بمعنى أنّ الصـلاح يحلُّ محلَّ الفسـاد. وفي الحالات كلِّها يخبرنا ﷻ أنّ رحمته وحياطته لبني البشر هي ثابتٌ دائمٌ أوضحـه ﷻ للملائكة عند خَلْق الكون والإنسـان: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

إنّ غاية الاسـتخلاف الكبرى هي العمران البشري والإنساني في العالم وللعالـم. والقرآن الكريم يشـرع نهجاً وسُـنَّةً للاسـتخلاف والإعمار معاً، ويعالج الاختلالات التي يمكن أن تحصل بما يشكّل رؤيةً للعالَم ونهجاً قرآنياً لإعماره. كما أنه يوضّح العواقب على المستويين الفردي والجماعي والإنساني لمفارقة هذا النهج أو الاختلالات فيه.

إنّ هذا العدد من **مجلـة التفاهم** يقرأ من خلال مقـالات كُتّابه، هذه الأُطروحة الواسـعة للوجود الإنساني والعمل الإنسـاني، في الدين والفلسفة والتاريخ ومنظومات الأفـكار والمفكرين في الحاضر. ونتوخّى من وراء ذلك بلوغَ اسـتناراتٍ معينةٍ في المسـائل الكبرى التي تتعلّـق بوجودنا وحضارتنا ومصائرنا.